كان النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه يذكرون الله وكأنما على رؤوسهم الطير

الصبر على الطاعة من أفضل أعمال البرّ

■ كثير من الخلق يسهل عليهم الصبر على المصائب والبلايا وعن المعاصي ولكن قليلاً منهم من يصبر على طاعة الله

■ كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه لأنها أمور جرت بغير اختياره

قال الشافعي: «رأيتُ شيخاً قد أتى عليه تسعون سنة، يدور نهاره أجمع حافياً راجلاً على القينات يعلمهن الغناء، فإذا أتى الصلاة صلى قاعداً». الصبر هو نصف الإيمان، وذلك لأن الإيمان نصفه صبر والنصف الآخر شكر، وقد ذُكر الصبر في القرآن في تسعين موضعاً في موطن المدح والثناء والأمر به، وهو واجب بإجماع الأمة، وهو أنواع:

1. الصبر على طاعة الله، وهو أفضلها.
2. الصبر عن معصية الله عزّ وجل، وهو يلي النوع الأول في الفضل.
3. الصبر على امتحان الله عزّ وجل.

قال ابن القيم رحمه الله: «فالأولان صبر على ما يتعلق بالكسب، والثالث صبر على ما لا كسب للعبد فيه».

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّس الله روحه - يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، ولا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، أما صبره عن المعصية، فصبر اختيار ورضا، ومحاربة النفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة، فإنه كان شاباً، وداعية الشباب إليها قوية، وعزَباً ليس له ما يعوضه ويبرد شهوته، وغريباً والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه مَن بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكاً والمملوك أيضاً ليس له وازع كوازع الحر، والمرأة جميلة، وذات منصب، وهي سيدته، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها، والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟!

وكان يقول: الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرّمات وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية).

وما قاله شيخ الإسلام هو الحق، فقد قرن الله بين الصبر والإيمان والعمل، حيث قال في سورة العصر: «والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»، ولهذا قال الشافعي -رحمه الله-: لو لم ينزل من القرآن إلا هذه السورة لكانت كافية وحجة على الأمة.

والدليل على ذلك أن كثيراً من الخلق يسهل عليهم الصبر على المصائب والبلايا وعن المعاصي، ولكن قليل منهم من يصبر على طاعة الله عزّ وجل، بل من الناس من يصبر على المعاصي ويتحمل من أجلها ما لا يتحمل معشار معشاره على طاعة الله عزّ وجل.

قال المزني رحمه الله: سمعتُ الشافعي -رحمه الله- يقول: رأيتُ بالمدينة المنورة أربع عجائب، رأيتُ جدّة بنت إحدى وعشرين سنة، ورأيتُ رجلاً فلسه القاضي في مدين نوى، ورأيتُ شيخاً قد أتى عليه تسعون سنة، يدور نهاره أجمع حافياً راجلاً على القينات يعلمهن الغناء، فإذا أتى الصلاة صلى قاعداً، ونسيتُ الرابعة.

وشاهدنا في قوله: «ورأيتُ شيخاً قد أتى عليه تسعون...» إلخ.

وما تعجب منه الشافعي، وحق له أن يعد ذلك من العجائب، مُشاهد، فإنك تجد البائع واقفاً في سوقه من الصباح إلى المساء لا يفتر ولا يقعد، وكذلك مشجع الكرة يقف على رجل واحدة ويصيح بملء فيه ويدخل الملعب قبل ثلاث ساعات من موعد المباراة، وتجد الفنّان يقيم الحفلة إلى مشارف الصبح، والمصلي يخرج من المسجد يقف يتكلم في أمور الدنيا الساعة والساعتين، وغيرُهم كثير، فإذا استغرقت الصلاة ربع ساعة، أو اطمأن الإمامُ في ركوعه وسجوده قليلاً، قامت الدنيا ولم تقعد، وتضجّر النّاسُ، واشتكوا، ومنهم من يشكو الإمام إلى المسؤولين وإلى لجنة المسجد، ورفع في وجه الإمام كلمة الحقّ التي يريدون بها باطلاً: «من أم الناس فليخفف فإن فيهم الضعيف...» الحديث.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم الذين كان يؤمهم الرسول صلى الله عليه وسلم في المغرب أحياناً بالأعراف والصافات، والذين أمهم أبوبكر الصديق مرة بالبقرة كلها في صلاة الصبح، والذين كثيراً ما كان يؤمهم عمر في الصبح بيوسف، وهود، والنحل، ليس فيهم مريض ولا ضعيف؟

وتقريب الرسول صلى الله عليه وسلم على معاذ رضي الله عنه لأنه كان يصلي معه العشاء ثم يذهب ليؤم قومه بعد ذلك، وقد أمهم يوماً بالبقرة في الركعة الأولى من العشاء، وبالنصر في الثانية، وعندما خرج أعرابي من صلاته نال منه معاذ بأنه منافق! ومن أجل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال.

أين هذا كله مما عليه الأئمة الآن؟! فتبيّن أن احتجاج البعض بهذا الحديث ليس في موضع النزاع، فمن فعل كما فعل معاذ يكون فتاناً حقاً، ولكن مَن من الأئمة الآن يستطيع أن يفعل ذلك ولو كان فذاً؟!

أعجب من هؤلاء جميعاً من يحيي ليله بالرقص، والتواجد، والضرب بالأقدام على الأرض، فإذا حان وقت صلاة الصبح تفرّق جلهم، ومن بقي صلّى بهم بقصار المفصل من غير اطمئنان ولا خشوع.

لقد صاغ العلامة ابن القيم رحمه الله حال هذه الطائفة - الصوفية - التي أسست على الكسل كما قال الشافعي، شعراً، حيث ذكر جدهم واجتهادهم عند السماع، والرقص، والتواجد، الذي هو دين عباد العجل، عندما اتخذ لهم السامري عجلاً جسداً له خوار، فقاموا حواليه يرقصون ويتواجدون حتى يقع أحدُهم مغشياً عليه، فالرقص، والتواجد، والسماع الصوفي ليس من الذكر الذي شرعه الله لعباده على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، فقد كان هو وأصحابه يذكرون الله وكأنما على رؤوسهم الطير من الوقار والسكينة، مقارناً له بصدودهم عن سماع آيات القرآن والعلم.

عُرف بالحلم والأناة ولين الجانب والرفق

أبوبكر السبّاق في فعل الخيرات ومكارم الأخلاق

اتصف الصديق بالأخلاق الحميدة، والصفات الرفيعة ومسابقته في الخيرات حتى صار في الخير قدوة، وفي مكارم الأخلاق أسوة، وكان حريصاً أشد الحرص على الخيرات، فقد أيقن أن ما يمكن أن يقوم به المرء اليوم قد يكون غير ممكن في الغد، فاليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل، ولذلك كان من المسارعين في الخيرات: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «من أصبح منكم اليوم صائماً؟» قال أبوبكر: أنا، قال: «فمن تبع منكم اليوم جنازة؟»، قال أبوبكر: أنا، قال: «فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟»، قال أبوبكر: أنا، قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟»، قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة».

كظمه للغيظ

قال أبو هريرة: أن رجلاً شتم أبا بكر ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- جالس، فجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- يعجب ويبتسم، فلما أكثر الرجل رد عليه أبو بكر بعض قوله، فغضب النبي -صلى الله عليه وسلم- وقام، فلحقه أبوبكر وقال: يا رسول الله، كان يشتمني وأنت جالس، فلما أكثر رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت! فقال عليه الصلاة والسلام: «انه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله -عز وجل- الا أعز الله بها نصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة الا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة الا زاده الله بها قلة». ان الصديق رضي الله عنه اتصف بكظم الغيظ ولكنه رد ما ظن انه به يسكت هذا الرجل، فرغبه النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحلم والأناة، وأرشده الى ضرورة تحليه بالصبر في مواطن الغيظ، فان الحلم وكظم الغيظ مما يزيد المرء ويجمله في أعين الناس، ويرفع قدره عند الله تعالى.

ويتبين لنا كذلك من هذا الموقف حرص الصديق على عدم اغضاب النبي -صلى الله عليه وسلم- والمسارعة الى ارضائه، وفي ذم الغضب للنفس، والنهي عنه والتحذير منه، واعتزال الأنبياء للمجالس التي يحضرها الشيطان، وبيان الفضل للمظلوم الصابر المحتسب للأجر والثواب، وفيه حث على العطايا، وصلة الأرحام، وذم للمسألة وأهلها.

وظل الصديق متمسكاً بالحلم وكظم الغيظ حتى عُرف بالحلم والأناة، ولين الجانب والرفق، وهذا لا يعني أن أبا بكر لم يكن يغضب، وانما كان غضبه لله تعالى، فاذا رأى محارم الله قد انتهكت غضب لذلك غضباً شديداً.

لقد عاش بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «متأملاً ومتفكراً وعاملاً بقوله تعالى: «وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين».

بلى أحب أن يغفر الله لي

كان أبوبكر يعول مسطح بن أثاثة، فلما قال في عائشة -رضي الله عنها- ما قال (حديث الافك المشهور) أقسم بالله أبو بكر الا ينفعه أبداً، فلما أنزل الله -عز وجل-: «ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا الا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم» [النور: 22] قال أبو بكر: والله اني أحب أن يغفر الله لي، فرجع الى النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

ولقد فهم الصديق من الآية أن على المؤمن التخلق بأخلاق الله، فيعفو عن الهفوات والزلات والمزالق، فان فعل فالله يعفو عنه ويستر ذنوبه، وكما تدين تدان، والله سبحانه قال: «الا تحبون أن يغفر الله لكم» أي: كما تحبون عفو الله عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم، وكما أن في الآية من حلف على شيء الا يفعله، فرأى أن فعله أولى من تركه، أتاه وكفر عن يمينه، وقال بعض العلماء: هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى: من حيث لطف الله بالقذفة العصاة بهذا اللفظ.

لقد دلت هذه الآية على أن أبا بكر أفضل الناس عند النبي -صلى الله عليه وسلم-: لأن الله وصفه بصفات عجيبة في هذه الآية، دلت على علو شأنه في الدين، أورد الرازي في تفسيره أربع عشرة صفة مستنبطة من هذه الآية: «ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة»، منها: انه وصفه بأنه صاحب الفضل على الاطلاق من غير تقييد لذلك بشخص دون شخص، والفضل يدخل فيه الافضال، وذلك يدخل على انه كان فاضلاً على الاطلاق، وكان مفضلاً على الاطلاق، ومنها انه لما وصفه تعالى بأنه «أولو الفضل والسعة» بالجمع لا بالواحد وبالعموم لا بالخصوص على سبيل المدح، وجب أن يقال: انه كان خالياً عن المعصية؛ لأن الممدوح الى هذا الحد لا يكون من أهل النار.

نزلت في جذر قلوب الرجال قبل هبوط الوحي بكتاب الله

الأمانة.. ضمير حي إلى جانب فهم صحيح للقرآن والسنة

الأمانة التي تدعو الى رعاية الحقوق، وتعصم عن الدنايا، لا تكون بهذه المثابة الا اذا استقرت في وجدان المرء، ورست في أعماقه، وهيمنت على الداني والقاصي من مشاعره؟ وذلك معنى حديث حذيفة بن اليمان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «ان الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة». والعلم بالشريعة لا يغني عن العمل بها، والأمانة ضمير حي الى جانب الفهم الصحيح للقرآن والسنة.

واذا مات الضمير انتزعت الأمانة، فما يغني عن المرء ترديد للآيات، ولا دراسة للسنن، وأدعياء الاسلام يزعمون للناس وقد يزعمون لأنفسهم أنهم أمناء، ولكن هيهات أن تستقر الأمانة في قلب تنكر للحق ومن ثم يستطرد حذيفة في وصفه، لتسرب الأمانة من القلوب التي تخلخل فيها اليقين، فيروى عن الرسول: «ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: ينام الرجل النومة فتنقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت هو الأثر المغاير كالنقطة على الصحيفة ثم ينام الرجل النومة فتنقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المجل كالتبور التي تظهر في اليد مثلاً في استخدام الأدوات الخشنة ثم قال: فيصبح الناس يتبايعون، لا يكاد أحد يؤدي الأمانة؛ حتى يقال: «ان في بني فلان رجلا أميناً، وحتى يقال للرجل: ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان». والحديث يصور انتزاع الأمانة من القلوب الخائنة تصويراً محرجاً فهي كذكريات الخير في النفوس الشريرة، تمر بها ولبست منها، وقد تترك من مرها أثراً لاذعاً، بيد أنها لا تحيي ضميراً مات.

وأصبح صاحبه يزن الناس على أساس أثرته وشهوته، غير مكترث بكفر أو ايمان!؟ ان الأمانة فضيلة ضخمة، لا يستطيع حملها الرجال المهازيل، وقد ضرب الله المثل لضخامتها، فأبان أنها تثقل كاهل الوجود فلا ينبغي للانسان أن يستهين بها، أو يفرط في حقها. قال الله تعالى: «انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا». والظلم والجهل آفتان عرضتا للفطرة الأولى، وعني الانسان بجهادهما، فلن يخلص له ايمان، الا اذا نقاه من الظلم: «الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن ...». ولن تخلص له تقوى الا اذا نقاها من الجهالة: «انما يخشى الله من عباده العلماء»، ولذلك بعد أن تقرأ الآية التي حملت الانسان الأمانة تجد أن الذين غلبهم الظلم والجهل، خانوا ونافقوا وأشركوا، فحق عليهم العقاب، ولم تكتب السلامة الا لأهل الايمان والأمانة: «ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما».

الوفاء اذا أبرم المسلم عقدا فيجب أن يحترمه، واذا أعطى عهدا فيجب أن يلتزمه ومن الايمان أن يكون المرء عند كلمته التي قالها، ينتهي اليها كما ينتهي الماء عن شلالاته؛ فيعرف بين الناس بأن كلمته موثق غليظ، لا خوف من نقضها ولا مطمع في اصطيادها. العهد لابد من الوفاء به، كما أن اليمين لابد من البر بها، ومناط الوفاء والبر أن يتعلق الأمر بالحق والخير والا فلا عهد في عصيان ولا يمين في مأثم وقد قال رسول الله: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها، فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير» ولا يسوغ لامرئ الاصرار على الوفاء بيمين، الحنث فيها أفضل، وفي الحديث: «لأن يلج أحدكم بيمينه في أهله آثم له عند الله تعالى من أن يعطي كفارته التي افترضها الله عليه ومن ثم فلا تعهد الا بمعروف، فاذا وثق الانسان عهدا بمعروف فليصرف همته في امضائه، ما دامت فيه عين تطرف، وليعلم أن منطق الرجولة وهدى اليقين، لا يتركان له مجالا للتردد والانثناء.

روى أنس بن مالك قال: «غاب عمي أنس بن النضر عن قتال» بدر «فقال: يا رسول الله غبتُ عن أول قتال قاتلت المشركين لئن أشهدني الله مع النبي قتال المشركين ليرين ما أصنع فلما كان يوم «أحد» انكشف المسلمون، فقال: اللهم اني أعتذر اليك مما صنع هؤلاء يعني أصحابه وأبرأ اليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين ثم تقدّم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر اني لأجد ريحها من دون أحد! قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، ثم تقدم».

قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بسهم، ووجدناه وقد مثل به المشركون، فما عرفه الا أخته، بشامة فيه، أو ببنانه.. قال أنس: كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا».

تزكية الأرواح بالتدبر والتأمل وأداء العبادات

البناء التعبدي والأخلاقي في العهد المكي

تزكية أرواح الرعيل الأول بأنواع العبادات: ربّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه على تزكية أرواحهم وأرشدهم إلى الطريق التي تساعدهم على تحقيق ذلك المطلب من خلال القرآن الكريم ومن أهمها:

التدبر في كون الله ومخلوقاته، وفي كتاب الله تعالى.

التأمل في علم الله الشامل وإحاطته الكاملة بكل ما في الكون، بل ما في عالم الغيب والشهادة.

عبادة الله عز وجل، من أعظم الوسائل لتربية الروح وأجلها قدراً، إذ العبادة غاية التذلل لله سبحانه ولا يستحقها إلا الله وحده.

والعبادات التي تسمو بالروح وتطهر النفس نوعان:

النوع الأول: العبادات المفروضة كالطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج وغيرها.

النوع الثاني: العبادات بمعناها الواسع، ويشمل كل شيء يُنتوى به التقرب إلى الله سبحانه وتعالى فهو عبادة يثاب صاحبها، وتربي روحه تربية حسنة.

إن تزكية الروح بالصلاة وتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى، والتسبيح له سبحانه أمر مهم في الإسلام، فإن النفس البشرية إذا لم تتطهر من أدرانها وتتصل بخالقها لا تقوم بالتكاليف الشرعية الملقاة عليها، والعبادة والمداومة عليها تعطي الروح وقوداً وزاداً ودفعاً قوياً إلى القيام بما تؤمر به.

إن الصلاة تأتي في مقدمة العبادات التي لها أثر عظيم في تزكية روح المسلم، ولعل من أبرز آثارها التي أصابت الرعيل الأول.

الاستجابة لأمر الله تعالى وإظهار العبودية له سبحانه: وقد أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين الذين استجابوا لأمره، فقال عزّ وجل: «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» [الشورى: 38].

وكان الرعيل الأول يرى أن لكل عمل من أعمال الصلاة عبودية خاصة وتأثيرا في النفس وتزكية للروح.

مناجاة العبد ربه: وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهداً من مشاهد هذه المناجاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم: قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين: قال: مجدني عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

طمأنينة النفس وراحتها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى، وقد جُعلت قرة عينه في الصلاة، وقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة كثيراً من السنن والنوافل ليزدادوا صلة بربهم، وتأمن بها نفوسهم، وتصبح الصلاة سلاحاً مهماً لحل همومهم ومشاكلهم.

الصلاة حاجز عن المعاصي: قال تعالى: «اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ».

كان الصحابة رضي الله عنهم عندما يؤدون صلاتهم تستريح بها نفوسهم، وتمدهم بقوة دافعة لفعل الخيرات والابتعاد عن المنكرات، فكانت لهم سياجاً منيعاً حماهم من الوقوع في المعاصي.